الفصل الحادي والعشرون

سراب الدفاعات الكبيرة

أصبحت أيام الإفرنج في الأرض المقدسة معدودة مع قدوم المماليك إلى السلطة في مصر، وسرعان ما سارت القلاع والمدن المحصنة التي اقتضى تشييدها وقتاً طويلاً وطاقات هائلة ودما، نحو قدرها الأخير، وأصبحت سراباً من الماضي (الرومانسي) ومتعة للسواح، ومع ذلك، أبحر لويس في ذلك الوقت من عكا في ربيع سنة 1254، ورفض الفرنجة فكرة أن ثورة القصر في القاهرة من قبل مجموعة من العبيد كان ممكناً أن يكون لها تأثير مدمر على وجودهم في المماليك الشرقية حيث أن الفرنجة اعتبروها فكرة سخيفة، فهم قد عاشوا في الماضي في وجه المخاطر الناجمة عن صلاح الدين وأمثاله.

غير أن المماليك كانوا أشد قساوة من صلاح الدين، وفي الواقع فإن جميع تدريباتهم اتجهت لجعلهم كذلك، وقد كانوا في الأصل عبيداً اتراكاً يشترون وهم أطفال ويربون ليصبحوا جنوداً أقوياء تماماً مثلما كان الانكشاريون فيما بعد، ويدربون منذ الطفولة من أجل هدف مماثل من قبل السلاطين العثمانين، ويكبر هؤلاء إلى سن الرجولة وهم لا يعرفون أية روابط عائلية أو شعوراً بالوطنية بل أوقفوا بشكل مطلق لأداء الخدمة لسيدهم الذي ترتبط سعادتهم وحظوظهم به بشكل أساسي فإذا ازدهر وانتعش فإنهم يتنعمون في مجده المكتسب، ويقوم بدوره بمكافأتهم بالأموال والقوة، وإذا قهره

أعداؤه شاركوه في سقوطه وانحداره، وعندما تتقدم بهم السنون إلى حد ما في القتال يطلق سراح العديد منهم، وإذا كان ذلك لا يؤدي إلى اختلاف كبير، ونادراً ما تحلق سمة أو علامة عار خاصة بالعبودية التي عاشوا فيها، ومع مضي الوقت أصبحوا أحراراً ولكن تدريبهم وظروف عيشهم قيدتهم بشكل آمن إلى سيدهم أكثر مما يمكن أن يفعله الالزام القانوني في الماضي، ولذا فهم رجاله: حرس شخصي بإمكانه الاعتماد عليه تماماً خاصة إذا كانت معاملته لهم حسنة، وأخيراً ونظراً إلى تعاظم قوتهم فقد أصبح الخطر واضحاً من أن يصبحوا نظاماً خاصاً بأنفسهم، مثلما تعاظمت قبلهم قوة الحرس البريتوري وجرت الأمور في وقتهابشكل حسن عندما قادت الجيش الإسلامي أغلبية من الضباط الأكراد، ولكن مع مضي السنين أصبح السلاطين معتمدين أكثر فأكثر على قواتهم التركية. التي أصبحت لا يكمن الاستغناء عنها كفرق مختارة، وسرعان ما أدرك المماليك أنهم أنفسهم وليس السلاطين، تسلموا السلطة وهي الحقيقة التي اكتشفها السلطان الشاب تورانشاه في وقت متأخر جداً عندما أصبح عاجزاً عن طردهم. وقد استلم السلطة منه رجل مملوكي رفيع المستوى دعي عز الدين أيبك وبمساعدة إخوانه المماليك لم يتمكن أحد من تحديه في السلطة والقوة والقبض على السلطنة، ولحسن الحظ، أنه لم يكن رجلاً معتدياً أو مضطهداً بالنسبة للمسيحيين خاصة.. في المماليك الصليبية، ولكن بعد عشر سنوات من مقتل تورانشاه. أصبح مملوك آخر وهو ركن الدين بيبرس البندقداري الذي شارك في جزء كبير في ذلك القتل، اصبح سلطاناً رهيباً بالفعل.

وكان التغيير الذي طرأ بشكل تدريجي وغير مدرك على الإفرنج أنفسهم، تهديداً أكبر لبقاء المسيحيين في المماليك الصليبية، فاختلفوا هم أنفسهم ومجتمعهم عن أولئك في الأيام الأولى من المماليك الصليبية، وقد اقترح أن إخفاق الحملة الصليبية التي قادها القديس لويس كانت مسؤولة عن فقدان الثقة بين المسيحيين بين الشرق والغرب بينما كان في الإمكان في هزائمهم السابقة

وضع السبب على غضب الرب الذي استهدفته ذنوبهم، وقد كان لويس رجلاً صالحاً بوضوح إلى درجة يتعذر تفسير إخفاقه في مصر بهذه الطريقة، ونستنتج بدلاً من ذلك، أن الرب لم يعد في جانب الصليبيين وسواء افكر الناس بمثل هذه الطريقة أم لا، فإن الهاب الحماسة بالتأكيد من أجل شن حرب ضد المسلمين كان أمراً صعباً، في ذلك الوقت أكثر مما كان في السابق، ورغم أن ميلهم إلى القتال لم يتقلص على أية حال، لأنهم أمضوا معظم أوقاتهم في القتال، لكنهم الآن بيد أنهم يفضلون القتال بين بعضهم بعضاً عن شن حرب ضد العالم الإسلامي، وحالما أبحر لويس إلى وطنه، انفجرت حرب أهلية مريرة في المماليك الصليبية حول ملكية دير كرس للقديس سابا الذي كان يقع فوق تلة بين البنادقة والجنويين في عكا، ووقف البيزيون وجماعة فرسان الداوية وأحياء الفرنسيين والجنوبين وعائلة أيبلين القوية إلى جانب البنادقة، في حين أيد جماعة فرسان الداوية بالإضافة إلى نبيل قوي أو أكثر في الأرض المقدسة، أيدوا الجنوبين، فنشأت معارك دموية في شوارع عكا ومعارك من أجل المدن القليلة المتبقية في أيدي الإفرنج في بقية ما دعي بالمماليك الصليبية.

وكان هذا عملاً جنونياً، غير أنه لم يكن هناك أحد قوي إلى حد كاف ليوقفه كما لم يكن ثمة حكومة مركزية تستحق هذه التسمية. وبعد فترة من رحيل القديس لويس مات ابن الامبراطور فريدريك، الذي كان ملك القدس الاسمي منذ موت فريدريك، واصبح ابنه الذي له من العمر سنتين في ذلك الحين رئيس دار هوهنستاوفن، ونودي به ملكاً على القدس كاسم كوزاد الثالث في مكان والده، ولكن الملك الطفل لم ينل ملكية محسوسة فعلية في عالمه الجديد، وبقي في مسقط رأسه في الممالك الإيطالية ترعاه وتعنى به مربياته هناك، وبذلك بقيت الممالك الصليبية دون زعيم يرعى شؤونهما، وبذلك النبلاء أقصى ما في وسعهم لإدارة دفة الحكم في البلاد، وتسلموا في ذلك الوقت نفوذاً حقيقياً بسيطاً ولكنهم كانوا غير قادرين على ضبط الأحزاب

المنظمة بقوة والمتعددة التي تنافست فيما بينها من أجل السبق في التفوق السياسي، وكان بين ذلك كله رجالات دويلات المدن الإيطالية المتعددة الذين كانوا في نزاع مع بعضهم باستمرار، وضبطوا اقتصاد البلاد بالسيطرة على البحار بأساطيلهم وقد دب الصراع بينهم من أجل السيطرة على التجارة بين أوروبا الغربية وبلاد شرق البحر الأبيض المتوسط، ولم يلق انتباهاً سواء المسيحيون أو المسلمون إلى ثروات إخوانهم المسيحيين في الممالك الصليبية، أما الجماعات الأخرى الوحيدة ذات النفوذ والقوة مثل البنادقة والجنويين والبيزيين فهي الجماعات العسكرية التي كرهت الواحدة منها الأخرى، وحقدت عليها كثيراً مثلما فعل الأيطاليون، ومثل الايطاليين أيضاً، كانت متنافسة وغنية وقوية جداً أكثر من أي نبيل أوعائلة نبيلة، كما كانت عنيفة تماماً عندما يحين الوقت للدفاع عن مصالحها الأنانية الخاصة، ولم تتوقف الجماعات عن القتال إلا عندما تهددت هذه القوى بالصراع من أجل السيطرة، الذي تطور بين المغول في الشمال والمماليك في الجنوب إلى درجة أنها توقفت عن القتال بينها من أجل تجنب تدميرها بين هاتين القوتين.

وعندما غادر لويس المماليك الصليبية سنة 1254 حكم المغول رجل كانت أمه مسيحية نسطورية تقية، وقد دعي هذا الرجل مونكا وتزوج من فتاة مسيحية أيضاً، وقد قسمت الامبراطورية المغولية العظيمة بين إخوته الثلاثة. ووقعت القرعة بالنسبة لبلاد فارس على الأخ الثالث ومنهم واسمه هولاكو الذي تزوج من فتاة مسيحية أيضاً، وابتهج الإفرنج بشكل مفهوم وواضح لسماع كيف نظرت الحكومة المغولية بشكل مرضٍ إلى الديانة المسيحية. رغم أنهم روعوا نوعاً ما باكتشاف الاختلاف الكبير بين آداب المسيحيين المغوليين وبين تلك عند إخوانهم وأخواتهم في المسيحية في الغرب، ورغم أن والدة خان العظيم ربما كانت مسيحية تقية فإنها لم تعتبر الحالة على ما يبدو وتعود إلى القداس السامي لصباح ذلك الأحد الوحيد بشكل باعث على اليأس كثيراً إلى درجة أنها لم تستطع أن تصمد: وهي عقبة أدهشت بشكل طبيعي وليم أوف

روبدوك الزاهد الدومينكاني الذي أرسله الملك لويس إلى بلاط ابنها كسفير، غير أن الإفرنج كانوا سعيدين بما فيه الكفاية كي يتغاضوا عن أفكار المغول الخاصة باللباقة والذوق ما داموا مستمرين في تدمير قوة المسلمين الواحدة بعد الأخرى، كما كانوا يقومون بذلك منذ أيام جنكيز خان، وفي الحقيقة عقد الإفرنج في أنطاكية سنة 1254 حلفاً معهم كما فعل ذلك قبلهم الأرمن المسيحيون.

وكان هدف الحلف ضد المسلمين، وبدا أن برهان الحكمة منه عندما شاهد الإفرنج هولاكو، أخا الخان العظيم وإيلخان بلاد فارس على رأس جيش عظيم من الغول، وإنه يريد في أول الأمر تدمير الفئة المسلمة القديمة من الحشيشية ثم التحرك للاستيلاء على بغداد والقيام بتذبيح ثمانين ألفاً من سكان المدينة، واستثني المسيحيون وحدهم الذين ربضوا في أمان في كنائسهم ولم يسكن الزمن قسوة المغول، وبدا هولاكو نفسه مجرداً من كل عاطفة أو لطف مثل بقية أبناء عرقه. فقد كان رجلاً منفراً عانى من نوبات الصرع، ولكن كان لديه ادعاءات بالتعلم وتذوق معين للفلسفة، وحتى لو كانت لديه تلك النزعة التعليمية فهي لم تمنعه من إصدار أوامره إلى جنوده للقيام بأعمال مروعة رهيبة.

وبعد القيام بذبح سكان بغداد، وهو الدمار الفعلي للخلافة العباسية، وقتل الخليفة. تحرك هولاكو باتجاه باتجاه الغرب ضد المسلمين الفزعين في سورية الذين فعلوا ما في وسعهم لتفادي غضبه بإرسال مبعوثين إلى معسكره مع أوامر بوعده بكل شيء يطلبه منهم، أما أولئك الذين اعترضوا طريقة فقد عوملوا بوحشية مدروسة وغير مصدقة تقريباً، وأما حاكم إحدى المدن الذي كان غبياً بما فيه الكفاية بعد الاستسلام له فقد أجبر على أكل لحم قطع من جسده حتى مات، وكانت حلب أول هدف لهولاكو في سورية، ورغم أنها دفعت عن نفسها بشجاعة وتصميم، فإنها لم تصمد أكثر من فترة أسبوع قبل أن تسقط في أيدي المهاجمين، وذبح المواطنون فيها حتى آخر رجل، واستثني مرة أخرى

المسيحيون وحدهم من المذبحة، أما دمشق فكانت المدينة التالية التي استسلمت، ولكنها فعلت ذلك دون قتل رغم أن بعض الأرواح الشجاعة التي دافعت عن قلعتها، حيث كانت أغلبية الدمشقيين فزعيين من نتائج المقاومة للقتال من أجل مدينتهم، وفتحت أبوابها لهولاكو وأحلافه الأمراء والأرمن في أنطاكية الذين انضموا في ذلك الوقت إلى مقدمة المنتصر، ومع ذلك كان الثمن الذي دفعوه للمشاركة في انتصار المغول أنهم أصبحوا تابعية. ومن أجل بعث السرور في سكانها الاغريق الذين أدرك إيلخان أهميتهم جيداً أمر أمير انطاكية أن يعزل رئيس أساقفة اللاتين في أنطاكية ويحل مكانه بطريرك إغريقي.

وبينما ناصر الإفرنج وشمال سورية المغول في قضيتهم كان بعض الإفرنج في عكا أقل سروراً بقدومهم، فقد كان البنادقة على الأخص يتمتعون بشبه احتكار للتجارة مع مصر التي كانت تتدفق عبرها معظم تجارة الشرق والغرب مع أوروبا الغربية عن طريق البندقية لذلك كان أبعد شيء رعبوا أن يحدث بشأن تلك التجارة أن تتحول نحو الشمال عبر طرق القوافل إلى مرافيء البحر الأسود التي كان يسيطر عليها البيزنطيون الذين لم يكن الجنويون على علاقات حسنة معهم، كما كان هناك آخرون مثل البنادقة الذين لم يسعدوا بسماع التقدم المنتصر للمغول، وكان هؤلاء العديد من الإفرنج الذين لم يكن لديهم مصالح تجارية للدفاع عنها، فلم يستسيغوا إمكانية أن يصبحوا خاضعين لخان العظيم، ففترة سنوات كانوا قد تعلموا أن يعيشوا جنباً إلى جنب مع جيرانهم المسلمين في ظروف متفق عليها من العداوة المسلحة، فكانوا في بعض الأحيان في حرب معهم أما في أحيان أخرى فقد تقيد الجانبان بمعاهدة السلام، وأصبحت الحياة تحت مثل تلك الشروط عادية جداً إلى درجة أن كل جانب عرف تماماً أين سيقف، سواء كان ذلك في الحرب أو في السلم، غير أنه لم يدر أحد ماذا ستشبه الحياة لو أن المغول دمروا آخر معقل للإسلام في مصر، وهو توقع بدأ يبدو مرجحاً بشكل مطرد عندما تقدم هولاكو باتجاه الجنوب، وخاف الإفرنج كثيراً من إمكان أن يتغير الحال إلى الأسوأ.

وفي أثناء ذلك، حدثت تغيرات في مصر أيضاً فقد كان السلطان المملوكي الأول غبياً جداً إلى درجة أنه تشاجر مع زوجته شجرة الدر، وهو شيء خطير إلى حد بعيد، ولم يكتشف ذلك بسرعة كافية، فقد أمرت بقتله أحد المقربين منه بينما كان في حمامه، ولكنها هذه المرة أخفقت في تحقيق غايتها، وأثارت حادثة موت السلطان أبيك بعض إخوانه المماليك كثيراً إلى درجة قاموا بثورة ضد السلطانة، وتلا ذلك صراع برهن فيه المتمردون أنهم أقوياء كثيراً بالنسبة لشجرة الدر التي قتلت في أوائل صيف سنة 1257، وجعل ابن أيبك المراهق سلطاناً، فأكد عدم فعاليته وحل محله مملوك آخر دعي سعيد الدين قطز الذي قدم إلى السلطة قبل التمكن من تجنب الصدام بين المغول والمصريين، وقدم إلى القاهرة مبعوث مغولي للمطالبة بتبعية المصريين، وكانت هذه رسالة أمكن لأي مملوكي الرد عليها بجواب واحد حيث قتل قطز السفير المغولي واستعد للحرب.

إن الافتراضات والتوقعات في التاريخ خطيرة غير أن الفتنة والاعجاب بما قد حدث من حوادث غير متوقعة غيرت ميزان القوى بين الجانبين في تلك اللحظة بالأخص، كانت أموراً لا تقاوم ذلك أنه بعد أن أعلن هولاكو عن تحديه للمماليك وصلته أنباء وفاة أخيه خان مونكا العظيم، وكذلك أنباء نشوء صراع حول السلطة في آسيا من أجل خلافته، فشعر أنه مضطر للزحف شرقاً مع قسم كبير من جيشه للدفاع عن حدود الخانية ضد أي هجوم محتمل يقوم به أحد المنافسين من أجل عرش مونكا، ولو أن مونكا لم يمت تماماً في تلك اللحظة لكان هولاكو قد التقى مع المماليك بكامل جيشه كما كانت النتيجة حتمية وهي فوزه دون شك وتدميره آخر معقل للقوى الإسلامية في الشرق، وبالتالي لربما تغير تاريخ العالم، وكما حدث في الواقع كان المصريون الذين ساروا باتجاه الشمال إلى داخل سورية متفوقين بالعدد على الجيش المغولي كما كانوا أقوى كثيراً من أعدائهم، وفوق ذلك، فقد تحرك المماليك بسرعة أكثر بعد قتل المبعوث المغولي بحيث فوجيء هولاكو وتم التغلب على أحد

مواضع ثغورهم الخارجية ودمرته طليعة الجيش المصري تحت قيادة القائد بيبرس، وفي غياب هولاكو مع القسم الرئيسي من جيشه في بلاد فارس وتولى أمر قيادة المغول قائد اسمه كتيوغا الذي سار جنوباً في وادي الاردن لملاقاة المصريين المتحركين نحو الشمال في الطريق الساحلية، وأرسل سفيراً مصرياً مسبقاً إلى عكا لطلب إذن العبور خلال أراضي الإفرنج، ولدعوتهم للانضمام إليهم في المعركة القادمة ضد المغول، ووافق أول الأمر بعض أمراء الإفرنج المجتمعين على نحو عاجل، وكانوا في صالح قبول الدعوة على أساس المبدأ القائل إن الشيطان الذي تعرفه خير من ذاك الذي تجهله، ولكن الراعي الأكبر للفرسان التيوتون وآخرين معه لم يؤيدوا الفكرة وأشاروا بوجوب أخذ الحذر والحيطة وأخيراً سمح للمصريين بالعبور الحر خلال البلاد دون تأييدهم عسكرياً، وأمضى السلطان قطز وجيشه بضعه أيام تحت الخيام في الريف خارج عكا، ثم دعي ومعه بعض المماليك كبار الشأن إلى داخل المدينة حيث حلوا هناك كضيوف شرف لدى الإفرنج، وكان بيبرس بينهم وقد لاحظوا بسهولة، إمكانية الاستيلاء على المكان إذا هوجم على نحو مفاجئ، ورغم أنه اقترح أمام السلطان أن الوقت الحاضر مناسب لذلك فقد رفض قطز ذلك الاغراء، وتركت عكا دون انتهاك.

وفي اليوم الثالث من أيلول سنة 1260 التقى الجيشان عند مكان اسمه عين جالوت في بلاد المسلمين، وأخبر السكان المحليون المصريين باقتراب المغول في وقت مناسب ليضع قطز خططه بعناية وحذر ونظراً إلى أن جيشه كان أكبر الجيشين، فقد كان لديه مزايا في التفوق عليهم في العدد ووقت المفاجأة، ولم يكن بالرجل الذي يرمي برجاله بعيداً في ضياع، وخبأ القسم الرئيسي من قواته بين التلال في الريف حول بحيرات جليودا حيث هزم الإفرنج صلاح الدين قبل أربع سنوات من معركة قرني خطين، وأمر قطز بيبرس أن يخرج بالطليعة لملاقاة المغول المقتربين وليستدرجهم حتى يقعوا في الشرك، أما كتيبوغا الذي بدا أنه لم يرسل كشافة أمامه أو لم يكن لديه فكرة على وشك

أن يصطدم مع العدو، خدع بمنظر بيبرس ورحاله الذين أقحمهم في الهجوم في اندفاع وحماسة بالغين، وتراجع بيبرس، كما ينبغي، في حالة فزع زائف إلى داخل التلال في مطاردة حامية مع المغول وقادهم ببراعة إلى الكمين، وقاتل المغول كالعادة بكل شجاعة وضراوة ولكن لم يكن لديه فرصة للفوز في المعركة وشق قليل منهم طريقهم بعيداً عن المكان في أمان غير أن الأغلبية الساحقة قتلوا، في حين كتيبوغا بعد أن قتل حصانة تحته. وجر الأسير أمام السلطان المنتصر، وقرر قطز أن يسخر منه ويهينه. وأجاب المغولي بكل شجاعة على ذلك أن انتصار المماليك لن يدوم طويلاً، وانهم سيداسون مثل الحشرات لأن الحشرات وحدها قتلت سادتهم وهذا ما فعله المماليك، وأمر قطز وهو في حالة غضب شديد أحد رجاله حرسه بضرب رأسه. وكان من الصعب جداً عندئذٍ أن يجيب المماليك.

لم يطل قدوم ثأر كتيبوغا التالي لوفاته الذي كان قد سخر منه قطز بتدوين خيانة يقوم بها المماليك فيما بعد. وفي أقل من شهرين بعد موته قتل السلطان المملوكي من قبل أحدهم. ونتيجة لانتصاره في عين جالوت وقعت سورية بكاملها في أيدي قطز وأصبحت المناصب الحكومية المرغوبة والمتعددة تخصه وحده في التصرف بها، وطالب بيبرس أن يصبح حاكم منطقة حلب ولكن قطز بدا في ذلك الوقت يظهر عدم الثقة به حيث تزايدت قوته بالنسبة للسلطان الذي رفض منحه ما طلب، دلتا النيل قام بمرافقة قطز في خروجه للصيد صباحاً مع مجموعة قليلة من مرافقيه، وعندما ابتعدت الزمرة الصغيرة قليلاً عن المعسكر اقترب أحدهم من السلطان كما لو أنه على وشك أن يطلب منه معروفاً وأخذ يده ليقبلها لكنه بدلاً عن تقبيلها قبض عليها بقوة في حين نهض بيبرس خلف قطز وأسلمه عدة طعنات في الخلف، ثم عادت زمرة القتلة الصغيرة إلى المعسكر المصري وأعلنوا وفاة قطز وادعي بيبرس شرف قتله، وعليه فقد نودي به سلطاناً للبلاد كما لو ليبرهن عن صحة ما ضمنه كتيبوكا عن أخلاقيات المماليك.

وكان الاستيلاء على السلطة من الأخبار السيئة بالنسبة للإفرنج، وكرههم بيبرس لمساندتهم المغول كما فعلوا ذلك في أنطاكية، وكان قد رأى نقاط ضعفهم عندما كان ضيفهم في عكا. ولم يمض وقت طويل قبل إعلانه عن نيته في طردهم إلى الخارج في البحر، وكان بيبرس من الناحية الجسمانية رجلاً ضخم الجسد ذا بشرة سمراء وشعر أحمر، وكانت إحدى عينيه زرقاء والأخرى بيضاء ثم فقدتا قوة الأبصار، وقيل أنه عندما عرض للبيع أول مرة وهو عبد شاب في سورية لم يشتره أحد لأنه بدا جلفا وأنه ما كان ليشتريه أحد مطلقاً لو لم يشتره سيد مملوكي، وإذا كانت الرواية حقيقية فإن مظهره قد ضخمه. لأنه على الرغم من أنه كان فظاً إلا أنه كان شديد الذكاء، وفي الواقع، كان رجل حكم لامع وجندياً موهوباً أيضاً. وقد جعلته حقيقة كونه خلوا من المثل خطيراً إلى حد رهيب، وبالفعل قد كان مجرداً من المبادئ الأخلاقية لا يتردد لحظة في اللجوء إلى القتل أو الخيانة أو الحنث بقسمه عندما يلائمه ذلك.

وفي بادئ الأمر كان لدى الإفرنج آمال كبيرة أن يبرهن بيبرس عن شكره وإمتنانه لمساعدتهم قبل معركة عين جالوت، وعندما حاولوا مفاوضته في إعادة بعض الأسرى المسيحيين الذين كانوا في أيدي المصريين رفض بفظاظة، ومع ذلك استمروا في محاولتهم وبعد فترة وجيزة من عيد الميلاد سنة 1263 نجح رجل من يافا دعي جون بدا أنه على صلة وثيقة مع السلطان الجديد، في ترتيب إطلاق سراح الأسرى بالتبادل لقاء بعض المسلمين الأسرى في المماليك الصليبية، وكان هذا نجاحاً دبلوماسياً منه، وربما كان مبشراً لعهد جديد من بيبرس، ولكن الفرصة أهملت من قبل الجماعتين العسكريتين الكبيرتين لأسباب أنانية محضة، ورفض الاسبتارية والداوية اطلاق سراح المسلمين الذين في حوزتهم لأن بعضهم كان أصحاب حرف مهرة وبالتالي فهم ذو شأن كبير بالنسبة لهم، ولم يقل أحد شيئاً حول المصلحة العامة في اختلافهم البسيط في قرارهم، ومع أن بيبرس صعق بذلك غير أنه لم يدع هذا الهجوم النادر من النقمة الأخلاقية من جانبه أن يؤثر في سرعة رده، وطلب إلى جون

من يافا أن يعود إلى حيث أتى وقام بغزو أراضي الإفرنج، وبعد نهب الناصرة زحف إلى عكا حيث جرت معركة عند أسوارها قتل فيها العديد من الجانبين ولحق الدمار بالضواحي، ثم تراجع مكتفياً بما قضاه من الوقت.

واستمر القتال بشكل متقطع على مدار السنة (1264) وكان أغلبه على المستوى المحلي، وفي أوائل سنة 1265 سار بيبرس شمالاً مع جيش مصري كبير كي يقابل المغول في شمال سورية الذين أظهروا علامات الاعتداء من جديد، ومن سوء الحظ بالنسبة للإفرنج أنه قبل أن يصل بيبرس إليهم تلقى أنباء عن اصطدامهم مع قوات في ذلك الموضع، فغير بسرعة اتجاه سيره واتجه إلى قيسارية وفي صباح أحد الأيام الأخيرة من شهر شباط ظهر في كامل قوته عند أسوار المدينة لمفاجأة السكان الفزعين، وصمدت القلعة لعدة أيام عندما أذعن مدافعوها مستسلمين ووعدوا بحريتهم، ودمر بيبرس المكان تماماً، ثم سار إلى حيفا التي كان سكانها أقل حظاً وسعادة من مواطني قيسارية. حيث نجا قليلون بالزوارق، أما الباقون فقد ذبحو ودمرت مدينتهم، ولم ينتظر السلطان حتى يرى اتمام أعمال الدمار ثم زحف إلى أضخم قلاع الداوية في عتليت وفرض الحصار عليها، وبرهنت أنها جد منيعة وتخلى بامتعاض عن الحصار وتحول إلى أرسوف التي دافع عنها ما يقارب ثلاثمائة من فرسان الاسبتارية الذين قاتلوا بشجاعتهم المهيبة المعتادة، وبرهن بيبرس في هذه الحادثة أنه أقوى بكثير، بعد أن قتل ما يقارب ثلث قوات الداوية استسلم الباقون بعد أن وعدوا بمنحهم حريتهم، ولم يتعلموا بعد كيف يتوجب إعطاء وعود للمماليك بعض التصديق حيث لم يطلق سراح أحدهم، أما هدفه التالي فكان عكا وفي هذ المرة أزعج سلبه للأراضي الفرنجية إلى درجة أن الملك هيغ الثالث الذي كان في قبرص عندما وصلته أنباء انتصارات بيبرس المدمرة، وصل إلى عكا مع جيش قبرصي كبير بما يكفي لتعزيز المكان بقوة، ولما قرر بيبرس أن ذلك كاف عاد أدراجه إلى مصر فهو بإمكانه العودة في سنة أخرى.

وأدى موت الايلخان هولاكو في سنة 1265 والنزاعات الحتمية بين

العائلة الحاكمة من أجل الخلافة إلى جعل المغول أقل قدرة مع الزمن، وترك الإفرنج دون تأييد حليفهم الوحيد القادر قوة ضد بيبرس، وهي الحقيقة التي قصد المماليك استغلالها إلى أقصى الحدود. وبينما كان ابن هولاكو يحاول توطيد نفسه مكان والده، قاد السلطان جيشين عبر سيناء في صيف سنة 1266، غزا بأحدهما بلاد الجليل بينما تابع الجيش الآخر زخفه شمالاً ضد الأرمن، ونال بيبرس أول الأمر بعض الانتصار وبرهنت عكا أنها منعية وقوية كثيراً بالنسبة له مرة أخرى، وعندما قام بحصار قلعة الداوية في صفد، صمدت ضده أيضاً، وعن طريق القيام ببعض الدعاية الماهرة والبارعة تدبر أمره في خلق صدع بين المرتزقة السوريين داخل القلعة، وبين الفرسان الداوية وبدأ السوريون بهجرها في أعداد كبيرة إلى درجة اضطر الفرسان إلى التفاوض مع بيبرس الذي وعدهم بحريتهم مقابل التخلي عن القلعة، ووافقوا على ذلك، وفي حين التزم الفرسان جانبهم من تنفيذ الاتفاق ضرب بيبرس أعناقهم واحد بعد الآخر، ويبدو أن عمله الوحشي هذا أثار شهيته لسفك دماء أكثر، فقد تلت ذلك حملة من الارهاب الفظيع انطلق فيها لقتل المسيحيين أينما وجدهم سواء كانوا من الإفرنج أو من المواطنين الفلسطينيين المقيمين في القرى التي كانت لهم منذ الأيام البيزنطية، وفي تلك الأثناء قاد الجيش المملوكي في الشمال رجل دعي قلاوون هاجم المملكة الأرمنية الصغيرة في قلقيليا ودمرها، وبعد أن ذبح آلافاً من مواطنيها تراجع قلاوون ومعه أربعون ألف أسير عزم على بيعهم في سوق النخاسة.

وبعد عامين قرر بيبرس الهجوم على انطاكية، فظهر عند أسوارها الهائلة في شهر أيار سنة 1268 ولم تستغرق العملية أكثر من أسبوع لخرقها، وقيل أن المذبحة التي تلت ذلك أذهلت المسلمين أنفسهم حيث أمر بيبرس بإغلاق أبواب المدينة وبذلك لم يتمكن أحد من النجاة ثم تلا ذلك انغماس في القتل المتنظم، وعندما دب الإرهاق والتعب في الجنود المصريين إلى درجة أنهم لم يعودوا يستطيعون استجماع قواهم لقتل المزيد حتى الأطفال توزع الفاتحون

بينهم ما بقي من الأنطاكيين كبير، وقسمت الأموال المكدسة عبر القرون بينهم كغنائم، وعندما وصلت الأنباء إلى عكا ذهل المسيحيون هناك، لقد كانت انطاكية أول مدينة كبيرة تسقط في أيدي الصليبيين بصرف النظر عن الرها، ولذا كان فقدها بعد حوالي قرنين من الحكم المسيحي ضربة صاعقة للمسيحيين، ومع ذلك لم تكن ضربة محطمة بما يكفي لتثني البنادقة والجنويين عن القتال في حرب مصغرة من أجل السيطرة على ميناء عكا، وكانت كلا المدينتين تتجر بشكل واسع مع مصر ولم تقنعهما النكبات التي أصابتهما مؤخراً لتتوحدا ضد العدو المشترك من أجل البقاء، وبدا أن الروح الصليبية ماتت أخيراً.

ولكنها لم تمت كلية في أوروبا فقد حاول لويس أن يقدم المساعدة لمسيحي الممالك الصليبية غير أنه مات في تونس، وفي السنة التالية 1271 وصل وريث العرش البريطاني الأمير ادوارد إلى عكا بعد فترة وجيزة من تسديد بيبرس ضربة محطمة أخرى للإفرنج وذلك بالاستيلاء على قلعة الحصن العظيمة التي تحدث صلاح الدين أيضاً، ولم يقدم مع ادوارد غير ألف رجل، غير أن بيبرس تأثر كثيراً بأنباء وصوله إلى درجة أنه تراجع إلى مصر مرة ثانية. وذهل ادوارد الذي كان رجلاً صافي الذهن قديراً إلى حد ما وهادئاً بما وجده لدى وصوله إلى المماليك الصليبية وسرعان ما اكتشف أن البنادقة المزودين الرئيسيين للسلطان بأدوات الحرب، في حين انهمك الجنويون تماماً في تجارة الرقيق المصري، ولم يفكر أحد الجانبين للحظة في التخلي عن تجارته مع العدو المشترك، وفي الواقع، فإن هذا العمل كان مركز قوة في شؤون بلادهم حتى أن المجلس الأعلى في عكا سلمهم تراخيص للتجارة مع مصر في أي شكل أحبوا، ورغم أن ذلك كان أمراً مغموراً وسخيفاً إلا أنه حقيقة واقعة.

وبقي ادوارد في المماليك الصليبية لمدة ثمانية عشر شهراً، ولكنه لم يحقق الكثير، ومع ذلك، نجح في إقناع المغول في الاشتراك، ووضع أيدهم مرة ثانية، وبعد أن هدأت الاضطرابات الداخلية في بلادهم استلم ابن هولاكو أبقا مكان والده، واغارت قوة كبيرة من المغول على شمال سورية حيث هزموا

المسلمين المدافعين عن حلب، ولكن سرعان ما انتهت الغارة والتفوا عائدين إلى بلادهم قبل ملاقاة بيبرس الذي كان في دمشق مع معظم الجيش المصري، وفي أثناء ذلك، قاد ادوارد نفسه غارة إلى داخل أراضي العدو، ولكنه لم يكن قوياً بما فيه الكفاية ليقوم بأكثر من البرهان عن مضايقة المسلمين هناك، وبعد سنة تحقق أنه لم يتمكن من عمل شيء دون امدادات من أوروبا وقرر السعي لعقد هدنة مع بيبرس، ووافق هذا على ما أراد السلطان الذي عرف أنه بإمكانه تدمير المملكة الصغيرة حول عكا متى أراد ذلك، فقد أراد أولا أن يتعامل مع المغول ويتيح للسلام مع الإفرنج الوقت اللازم كي يتغلب على هؤلاء الاعداء الفزعين كثيراً. ولذلك رحب باقتراب ادوارد جيداً، ومن أجل اطمئنان الطرفين وقعت هدنة في 22 أيار 1272 ودامت أحد عشر عاماً، إلا أن بيبرس لم يكن لديه نية في فسخ المجال للأمير الانكليزي ليعود إلى مسقط رأسه كي يحشد حملة صليبية جديدة. وليمنع ذلك استأجر واحداً من الحشيشية لقتله، فتحفى كمواطن مسيحي وطلب مقابلة ادوارد ثم طعنه بخنجر مسموم، ورغم أنه جرح بشكل خطير لكنه لم يمت وبقي مريضاً لعدة أشهر، وخلالها سارع بيبرس إلى إنكار أي اشتراك في الجريمة وبتهنئة ادوارد على سلامته وأخيراً شفائه، وأبحر ادوارد إلى بلاده في 22 أيلول ليجد والده قد مات، وأنه أصبح ملك إنكلترا.

وبعد خمس سنوات في 1277 هاجم بيبرس المغول وتابعيهم الاتراك السلاجقة في قلقيليا. وفي بداية الأمر أحرز انتصارات، ولكن نجاحه لم يكن من عمله لأن أبقا كان متيقظاً بشكل مرض للزحف ضده مع جيش مغولي كبير، فاضطر إلى التراجع، وفي شهر تموز مات وشاع أنه مات بشربه بعض الجميز المسموم، وهو حليب أنثى الخيل المخمر يسكر تماماً، ولع به الاتراك والمغول. وكان قد أعده لعدوه وتناوله من سبيل الخطأ، ورغم أنه مات لكنه من الصعب الاستنتاج بأن موته قد ترك العالم كمكان أفضل إلى حد ما، لأنه رغم أنه لم يكن أحد قادراً على إنكار أنه كان قديراً وموهباً إلى حد هائل فقد تبين على معجبيه أيضاً الاعتراف إنه رجل شرير.

ومع أن الإفرنج رجعوا إلى أقصى الحدود بموته لم يؤد إلى اختلاف بالنسبة لقدرهم لأن قلاوون خلفه وكان هذا عازماً تماماً على إفنائهم من فلسطين كما كان بيبرس، ولا بد أن مثل هذا التوقع قد أخاف الإفرنج ليتألفوا في نوع من الوحدة، ولكنهم لم يفعلوا، وبدلاً من ذلك، انفجرت حرب أهلية أخرى مزقت البلد الصغير إلى نصفين وتركته ينزف ويضعف متأثراً بجراحه التي أصاب نفسه بها، وتشاجر بوهيمند السابع الأمير الاسمي (الشرفي) في أنطاكية والفرد الأخير من بيت عظيم ـ مع بعض أبناء عمومه من عائلة الاميرياكو حول من ينبغي أن يتزوج الوريثة المحلية، فوقف الفرسان الاسبتارية إلى جانب بوهيمند بينما قاتل فرسان الداوية بشكل حتمي إلى جانب عائلة الأمبرياكو بعيداً عن بعض منافسيهم من الاسبتاريين، ووجه كل جانب أعمالاً رهيبة للجانب الآخر حتى أثبت بوهيمند أنه الأقوى، واضطر اعداؤه إلى الاستسلام له لقاء وعده لهم بسلامة أرواحهم، وحالما انتهى التسليم نكث بوهيمند وعده فقتل أغلبية الأسرى البائسين ودفن ثلاثة أبناء عموم من الأمبرياكو حتى رقابهم في خندق حيث تركهم يموتون جوعاً وعطشاً.

وصدم أصدقاء بوهيمند بهذا العمل من الوحشية التي لا حاجة لها، كما جفل أعداؤه أيضاً، وتفاقمت المرارة التي جزأت المملكة الصغيرة وضيعت فرصة مصالحة الفرق المتحاربة حين بقي بعض الوقت لذلك، كما ضيعت الفرصة الأخيرة من الانقاذ من قبل المغول وعندما أرسل الايلخان أبقا سفراءه إلى عكاء لهدف إقامة حلف عسكري ضد المماليك، قام الإفرنج بغباوة لا تصدق تقريباً بعقد إتفاق سلام مع قلاوون بدلاً من ذلك ورفض فرسان الاسبتارية وحدهم الالتزام به، ولذا عندما غزا المغول سورية سنة 1281 على أمل تدمير آخر قوة إسلامية عظيمة شرقي بلاد المغرب لم يتقدم إلى مساعدهم غير عصبة من الاسبتارية عندما زحفوا جنوباً لملاقاة قلاوون الذي كان ينتظرهم خارج مدينة حمص، وفي المعركة التي تلت ذلك الحق فرسان الاسبتارية القليلين هزيمة منكرة في الجناح اليساري من جيش قلاوون

وطاردوهم في طريق عبورهم إلى معسكرهم؛ ولكن الأمور جرت على نحو سيء بالنسبة لحلفائهم المغول، الذي اضطروا إلى التقهقر، وأصاب جيش قلاوون خسائر عديدة في الرجال من أجل احراز النصر؛ وانتهت المعركة دون تحديد شيء، ومن الصعب التيقن ما كان قد حدث لو انهمك الإفرنج فيها بدلاً من عصبة من الفرسان الاسبتارية ولكنه من الصعب عدم التصديق فيما قد تحدثه قوتهم الإضافية من اختلاف وإمكانية تدمير قلاوون.

وبعد أربع سنوات، في 1285 قرر قلاوون التعامل هذه المرة وللأبد مع الفرسان الاسبتارية، فقام بفرض حصار على قلعتهم الشمالية في المرقب التي صمدت لعدة أسابيع رغم أنه لم يدافع عنها أكثر من خمسة وعشرين فارساً، وساعدتهم الأديرة المحلية، وتمكن في النهاية بعض المهندسين المصريين من فتح نفق عميق تحت السور وانتهى قدر القلعة وعندما انهار أحد أبراجها الرئيسة وافق الفرسان على التخلي عنها مقابل حريتهم، وخرجوا على ظهور خيولهم في كامل أسلحتهم وسار خلفهم بقية الحامية في حين وقف الجنود المصريون يراقبون بصمت، ويبدو ذلك العمل بالنسبة للآداب الحديثة، أنه عمل مثالي ونبيل غير أن خسارة قلعة المرقب كان شيئاً محزناً حيث يصعب على الإفرنج تعويضه كما كان انذاراً خطيراً لهم.

ومع ذلك لم يتمكنوا إلا من عمل القليل فيما يتعلق بذلك. حيث كانوا في أمس الحاجة إلى الامدادات من أوروبا التي كانت في شغل شاغل بنزاعاتها عن الاهتمام بالأحداث الجارية في المماليك الصليبية، ولذلك تحول الإفرنج إلى قبرص متقدمين بعرض لملك الجزيرة هنري الثاني أن يكون ملكاً على القدس أيضاً إذا قدم إليهم وساعدهم، ووافق هذا، وتوج هنري في 15 آب 1286 في كاتدارئية صور. ورغم أنه كان في الرابعة عشرة، إلا أن فتوته لم تخلق مشاكل جديدة لتابعية، وكانت أمه من جماعة آيبلين Iblin وعرف جيداً أن أخواله الأيبلين سيحسنون توجيهه لأنهم محبوبون ومحترمون من قبل معظم الشعب، ولعل الإفرنج كانوا أقل سعادة لو أنهم علموا أن ملكهم الجديد

مصاب بالصرع، ولكن أعراض مرضه لم تظهر بعد لهم، وأن كل ما رأوه عندما وصل إلى عكا بعد تتويجه شاباً وسيماً ذا عادات ساحرة، فابتهجوا، ورغم التهديد الخارجي لوجود البلد الصغيرة ـ ذلك أن عكا احتفلت لفترة أسبوعين بقدوم ملكها الجديد، وكان المواطنون في مهرجان تكريم كبير، فقد ملأوا أيامهم بالألعاب والمباريات ولم تخطر إلى أحدهم فكرة العودة إلى منازلهم حتى الساعات الأولى من الصباح، وفي المساء راحوا يقيمون الموائد ويرقصون. واختلط جو الليل بأصوات الضحك والألحان والمهرجانات وربما اشترك أفراد من النبلاء في رومانسياتهم التاريخية المفضلة وعند انتهائه، عاد الملك الجديد إلى قبرص بناء على نصيحة أخواله، واضطر تابعوه أن يعودوا إلى الواقع والاشتراك في الأحداث المثيرة المقيتة التي بدأت تتكشف لهم.

ولحسن الحظ بالنسبة لهم أن التهديد الأسوأ لم يأت بشيء لوجودهم، ومات أبقا ايلخان في بلاد فارس سنة 1282. وخلفه أخوه تكيودار، الذي لم يكن له في السلطة زمن طويل عندما أعلن هدايته إلى الديانة الإسلامية، واتخذ لنفسه اسم أحمد وأرسل سفراءه إلى القاهرة مع أوامر بعقد حلف عسكري مع قلاوون، ولو أنه نجح في ذلك كانت النهاية المباشرة لعهد الممالك الصليبية والإفرنج مؤكدة، ولكنه لم ينجح في ذلك، فقد كان العديد من تابعيه من المسيحيين النساطرة متوجسين من تحوله الديني المفاجئ حتى أنهم قاموا بقتله، ولم يكن أرغون الايلخان الجديد مسيحياً ممارساً، ولكنه أوضح أنه يؤيد المسيحية وأنه أراد التحالف مع المسيحيين ضد المسلمين في مصر، وتقرب إلى الإفرنج في عكا والبابا هو نوريوس الرابع، ولكن بقليل من النجاح. وأحرز سفير مغولي إلى الإمبراطور في القسطنطينية التي استعادها البيزنطيون في ذلك الوقت، بعض النجاح رغم أنه استقبل بحرارة وحدث نفس الشيء عندما تقرب أرغون إلى ملكي فرنسا وبريطانيا: حيث استقبل بحرارة، ولكن لم يكن لأحد الملكين أن يعمل على قتل نفسه بالانضمام إلى عمل ضد قلاوون ولذا ضاعت الفرصة الأخيرة لإنقاذ الممالك الصليبية. وعلى الأرجح

أن الفرصة الأخيرة للإمبراطورية المغولية لتصبح قوة مسيحية نسطورية عظيمة في آسيا قد ضاعت أيضاً.

وفي ربيع سنة 1287 ضرب زلزال شمال سورية وتضررت أسوار الميناء المسيحي في اللاذقية، ورغم حقيقة أن الإفرنج كانوا مع قلاوون في حالة سلم، فقد ضاعت الفرصة وأمر قلاوون قواته في المنطقة بالهجوم على المدينة التي سقطت دون قتال تقريباً حيث كانت الحامية صغيرة، ولم يستطع الإفرنج في الجنوب إرسال مساعدة لهم، وذلك لأن الجنويين كانوا يقاتلون منافسيهم من البنادقة والبيزين بلا مبالاة لا تصدق تقريباً في حرب بحرية، وشنوا هجوماً واسع النطاق على عكا التي اخفقوا في الاستيلاء عليها، على الرغم أنهم هزموا الأساطيل المجموعة لأعدائهم خارج الميناء، وبعد سنتين جاء دور طرابلس لتسقط في أيدي المسلمين، وتم الاستيلاء عليها، بجزء من اللامبالاة والعجز من جانب البنادقة الذين كانوا في منافسة مع الجنويين من أجل السيطرة على تجارة المدينة فضلاً عن ترك المكان يسقط في أيدي أعدائهم، ودعوا السلطان بالفعل إلى التدخل لمساعدتهم في ضمانها لهم؛ وكان قلاوون مسروراً جداً لإعطاء مثل هذا التسويغ لخرق الهدنة مع المدينة، وأرسل جيشاً كبيراً ضدهم رغم أن سكانها دافعوا بشجاعة بالغة، وكانوا متفوقين في العدد كثيراً؛ وفي 29 نيسان 1289 استولى عليها بهجوم، وفي بعض المدافعين بحراً أما الباقون فقد قتلوا أو بيعوا في سوق النخاسة، ثم أمر السلطان رجاله بتدمير المكان إلى الأرض، وبذلك لن يتمكن أعداؤه من احتلاله مرة أخرى.

ولم يكن ثمة شك في أذهان المسيحيين الباقين الممالك الصليبية في أن عكا ستكون في قائمة السلطان، ولذا قاموا بعقد سلام معه في حين ارسلوا رسائل عاجلة إلى الوطن يناشدون إخوانهم المسيحيين في الغرب مساعدتهم قبل أن يفوت الأوان، واستجاب قلاوون بعد مقاومة أولية على هدنة أخرى دامت فترة عشرة سنوات، وتنفس سكان عكا الصعداء براحة، غير أن نجاحهم في أوروبا كان قليلاً حيث كان الملكان الانكليزي والفرنسي ما يزالان

منهكمين في نزاعاتهما كثيراً عن مسألة مصير عكا، ولكن البابا عمل على تجنيد جيش صغير من الفلاحين الإيطاليين العاطلين عن العمل، الذين كانوا موافقين على الذهاب إلى أي مكان ما دام سيدفع لهم شخص ما الأموال، كما وافق البنادقة على نقلهم إلى عكا على حساب البابا، وكان هؤلاء أشبه بالرعاع منهم بجيش صغير، ورغم أنهم وضعوا تحت أمره أسقف طرابلس الذي كان خبيراً وعارفاً بالوضع المحلي. فقد كانت سلطته عليهم نظرية أو اسمية أكثر منها واقعية فعلية، ولما انتهى كل شيء. كان من الأفضل لو أنهم لم يغادروا إيطاليا.

وفي الوقت الذي وصل فيه هؤلاء الإيطاليون إلى عكا، كان لدى المواطنين وقت لينهضوا من جديد ضد التهديدات التي تعرضوا لها في حياتهم العادية، وكما كان الوضع غالباً في الماضي وهو اللجوء إلى تجديد علاقاتهم القديمة مع جيرانهم المسلمين الذين كانوا مسرورين إلى حد كاف لفتح باب التجارة مرة ثانية في المدن الساحلية، واحتشد التجار من مدن حلب ودمشق والفرس ومدن إسلامية كبيرة أخرى في أسواق صور وصيدا وبيروت وعكا، وازدهرت الأعمال، وبدا أن عهداً جديداً من الازدهار قد انبثق بالنسبة للمسيحيين والمسلمين على السواء، ولكن كما كان يحدث في الماضي غالباً، وجد القادمون الجدد من إيطاليا وهم متشوقون لقتل مسلم أو مسلمين من أجل محبة الرب، أن المسيحيين يعاشرون الحشود الكبيرة من التجار المسلمين، فاستثارو ا غيظاً وغضباً، فهم جاؤوا لقتال المسلمين وليس للجلوس إليهم ومراقبتهم وهم يزدادون غنى، فقاموا بإهانتهم في الطرقات وسكروا كثيراً من الأمسيات وهاجموهم، وعندما مضت ثلاثة أسابيع تقريباً على وجودهم هناك، قاموا بأعمال الشغب خلال أرجاء المدينة فقتلوا كل شخص بدا لهم أنه مسلم، ودب الذعر في رجال ونساء المدينة، كما روع قادتهم. وبصرف النظر عن إنقاذ أرواح قلة من المسلمين بـ إخفائهم في بيوتهم كان هناك دور بسيط في الإمكان أن توقف المذبحة، وعندما انتهت الأزمنة اعتقل بعض قادة الفتنة

وعذبوا ولكن الدمار كان قد تم، وعندما أخبر قلاوون بالمذبحة قرر أن الوقت حان لرمي الفرنجة إلى البحر.

وأتم قلاوون استعدادته بعناية ولكن أمرها لم يخف، فوصلت إشاعات عن حشد جيش ضخم في مصر وآخر في سورية للهجوم على الإفرنج في الممالك الصليبية، كما أخبر أحدهم فرسان الداوية أن هذه الفرق ستهاجم؛ غير أن أغلبية الإفرنج رفضوا أن يصدقوا ذلك، فإن السلطان كان لا يزال ملتزماً بشروط الهدنة التي عقدها معهم، ولم يقدروا أنه سيعود عن كلمته الأولى، وسوغ هذا التفاؤل عندما وصلت الانباء مع نهاية سنة 1290 عن موت قلاوون فجأة، وكالعادة تلت موته مؤامرات ومؤامرات مضادة قام بها المتنافسون من أجل السلطنة الشاغرة، وسر الإفرنج بفترة تأجيل لعدة أشهر حتى وطد ابن قلاوون الأشرف الخليل إرثه، وذلك بإزاحة جميع منافسيه، ولم يطل السكون السابق للعاصفة، في حين استمرت الاستعدادات من أجل الحرب في مصر وسورية، واضطر مواطنوا المماليك الصليبية للتحقق من شن الهجوم القادم، وأرسلت طلبات عاجلة من أجل النجدة إلى أوروبا مرة أخرى، بينما حشد كل المقاتلين المتوفرين في عكا في عجلة من أجل المعركة القادمة التي لم يشك أحد في تهديدها عندئذ.

وهكذا، في الخامس من شهر نيسان سنة 1291 ظهر الأشرف عند أسوار مدينة عكا على رأس جيش كبير جداً حتى أن شهود عيان تحدثوا عن مقدار يفوق ربع مليون رجل، وقد وجد أبواب المدينة مغلقة وأسوارها محروسة بالرجال، وكانت التحصينات هائلة وأعداد المدافعين متفوقة بشكل بالغ، ومن غير ريب أن السلطان قاد فرقاً عديدة كما يغلب الظن في ذلك الوقت، ومع ذلك فقد جلب معه جيشين من دمشق والقاهرة بالإضافة إلى سيل واسع من أسلحة الحصار الثقيلة، في حين كان عدد سكان عكا الكامل يفوق أربعين ألف نسمة بما فيهم النساء والأطفال، كان المدافعون أيضاً رجال من

انكلترا وفرنسا وإيطاليا بالإضافة إلى جميع قوى الجماعات العسكرية الكبيرة الثلاثة الاستبارية والدواية وفرسان التيوتون، أما الجئوية فكانوا غائبين عن المكان لأنهم قد أبرموا معاهدة سلام منفصلة مع السلطان؛ ولم يكن لدى المسيحيين غير ميزة واحدة تفضل على أعدائهم حيث سيطروا على البحر، وكانت تصلهم المؤن بانتظام من قبرص، ومع ذلك تعين الاقتصاد في استهلاك الطعام والماء قدر الإمكان، وهكذا ففي كل مرة كانت تقود سفينة فارغة إلى قبرص كان ينقل بعض الأطفال والنساء على متنها إلى الجزيرة حيث الأمان.

وكما كانت الحال دائماً في الماضي، قاتل الفرنجة ببسالة عظيمة، وانفرجت طبيعة الأزمة كثيراً إلى درجة أنهم نسوا خلافاتهم أخيراً واتحدوا ضد العدو المشترك، ولكن الشجاعة وحدها لم تكن كافية لوقف زحف جيش الأشرف الضخم من المهندسين عن قصف وتقويض أسوار وأبراج المدينة، ومنذ اللحظة التي بدأ فيها الحصار في السادس من نيسان تعرض تحصينات عكا لقصف مدمر ومتواصل، وقذفت المناجيق الكبيرة وسائلها المخترعة الحديثة المؤلفة من حجارة أو أواني فخارية محتوية على متفجرات على الأسوار، في حين استمر راشقو الأسهم بهجوم مهلك على مدافعيهم وأطلقوا سحباً من الأسهم عليهم ملأت الجو بأزيز خارق جاء من أسهمهم الطائرة المكسوة بالريش كم ملأت قلوب أشجع المسيحيين بالرعب من الموت المفاجئ الهابط من السماء، وبدأ المهندسون الذين بدوا كحشود تعمل على لغم وتقويض الأبراج التي شكلت نقاط قوة في عدة مسافات على طول السور الخارجي للمدينة، وهي أبراج الملك هيغ والملك هنري الثاني والقديس نيكولاس والبرج الانكليزي وبرج كونتة أوف بلوا، وبرج ممثل البابا عند الميناء، وبرج البطريرك إلى جانبه ليمنحه نيران حماية، والبرج الالماني والبرج الملعون على السور الداخلي الذي لم يكن بالإمكان الهجوم عليه حتى يتم خرق السور الخارجي، ولم يطل حدوث ذلك كثيراً، بالإضافة إلى حقيقة أن الإفرنج ردوا بهجوم على أعدائهم محرزين بعض النجاح وراحوا يقصفون

معسكرهم بالقذائف التي كانت تقذفها المناجيق وتبلغ ظهور سفنهم، ويهاجمونهم وهم نيام في خيامهم في سلسلة من الغارات الجريئة، وبعد شهر ضعف أسوار المدينة كثيراً حتى بدأت تتفتت وتنهار وكذلك الأمر مع الأبراج الضخمة.

وفي يوم الجمعة 18 أيار أمر الأشرف بشن هجوم عام في المدينة، ومن الصعب بعد مرور وقت طويل على الحادثة إستعادة ذكريات عما لا بد أن يشبه الوقوف على أسوار عكا في ذلك الصباح عندما تمزق الفجر بضجيج الحشد الإسلامي وتقدم للهجوم، ولا بد أن الجو امتلأ بدوي الأبواق وصهيل الخيول، وقرع الطبول المتواصل من الطبالين الراكبين فوق الجمال يحضون إخوانهم الفرسان على الموت أو اكتساب المجد، وكذلك عن صرخات النوبيين والمصريين والسوريين والأكراد والأتراك والبدو من القبائل تلك الصرخات التي نادت بالأئمة والدراويش في الصلوات من أجل تدمير أعداء الرب غير الورعين، وعن الهسهسة المرعبة للأسهم، وعن تحطم القذائف المتفجرة وعن صراخ الجرحى وحشرجة الموتى، فماذا فعلت تلك الأصوات لقلوب وأذهاب وعدد الرجال القادمين من مناطق بروفنس وكنت والبندقية وبيزا عندما صمدوا في مواقعهم والتووا على دروعهم؟

وتضرر السور الخارجي على نحو سيء كثيراً إلى درجة أنه لم يعد بالإمكان ترميمه بالنسبة لجميع الأهداف والغايات فسقط ذلك اليوم، وأطلق هذا الوضع الحرية للمسيحيين لتركيز جهودهم لمنع العدو من خرق السور الداخلي، غير أن رجال الأشرف كانوا عديدين وهاجموا مع طول السور مما اضطر المدافعين للانتشار بين أقصى طرفيه، ومع ذلك فقد اتضح أن المسلمين كانوا يقومون بجهودهم الخاصة لنقل البرج الملعون ويرسلون موجات من الفرق المنتخبة الواحدة بعد الأخرى يقودها كبار الضباط مرتدين عمامات بصرف النظر عن الخسائر التي لحقت بهم. وكان هجومهم عنيفاً ومتواصلاً حتى أن المدافعين تحملوا الكثير، وعندما كان الرجال يقتلون أو يجرحون فإن

آخرين كانوا يحلون في أماكنهم ليصبحوا خسائر بدورهم، وبدا الأمر كما لو أن المعركة ستكون خاسرة أو رابحة حول البرج الملعون، وقدم الداوية والاسبتارية لمساعدة المدافعين، وقاتلوا جنباً إلى جنب كما لو أنهم إخوة في الدم أكثر منهم متنافسين ألداء، ومع ذلك خسروا البرج، وبسرعة قاد القادة الكبار في الجماعتين هجوماً معاكساً عنيفاً، ورغم أن الفرسان قاتلوا بنوع من الإيثار والبسالة المجيدة فقد تم التفوق عليهم بالعدد بشكل كبير، ولم يستطيعوا احراز أي تقدم، وقتل وليم أوف بوجو، الراعي الأكبر للكنيسة، وتلقى جون أوف فيلير الراعي الأكبر للاسبتارية جراحاً بالغة في حين عانى الفرسان الكثير وتراجعوا آخر الأمر.

وطبعت خسارة البرج الملعون الخاتمة على مصير عكا، وانتشر المسلمون منه على طول السور الداخلي للمدينة، ورغم بقائهم في جهة الشمال فإنهم نقلوا بوابة القدس نيكولاس إلى الجنوب وتدفقت قواتهم إلى الداخل، وبدأت غزوها للشوارع شاقة طريقها خلال شبكة المرات والساحات في المدينة، أما أولئك الفرنجة الذين فعلوا ما استطاعوا عمله فقد جعلوا طريقهم إلى الميناء كي ينجوا بأنفسهم عن طريق البحر، وكان لا يزال هناك بعض الوقت ولكن لم يكن هناك سفن كافية لإجلائهم جميعاً عن المدينة التي نزل بها حكم القدر، وسيطر شيء يشبه الهلع على السكان في الميناء، فقد غادر النساء والأطفال المكان وبقي الآخرون، وكانوا حتى الآن قد ناضلوا بما لديهم من جنود مرهقين وقساوسة فزعين من أجل تلك الأماكن في زوارق تجديف ويخوت صغيرة نقلتهم من رصيف الميناء إلى سفن تنتظر بعيداً عن الشاطئ، وحملت بعض هذه المراكب ما يزيد عن حمولتها فانقلبت وغاصت في المياه وأغرقت مسافريها، في حين استغل أصحابها قانون العرض والطلب إلى حد مربح عندما طلبوا وتلقوا مبالغ ضخمة من الأموال من أولئك الذين استطاعوا أن يشتروا أرواحهم بموافقتهم على دفع الأجور الباهظة التي طلبت منهم، وصنع فارس داوي إسباني كان قد قاتل بشجاعة نموذجية خلال المعركة في

المدينة، صنع ثروة عن طريق ابتزاز نساء نبيلات عندما أعطوه مجوهراتهن وممتلكات نفيسة أخرى مقابل عبورهن بأمان إلى سفينته، أما أولئك الذين لم يتمكنوا أو لم يدفعوا مبالغ مماثلة فقد تركوا وراءهم ليذبحهم الفاتحون، أو يبيعوهم كعبيد في أسواق العالم الإسلامي.

وسرعان ما أصاب المدن الإفرنجية الأخرى نفس القدر الذي نالته عكا، فسقطت صور التي تحدث صلاح الدين بنجاح مرتين دون قتال، ودافعت مجموعة صغيرة من فرسان الداوية عن صيدا لفترة من الوقت، غير أن القوى ضدهم كانت كبيرة بشكل غير معقول وأخيراً أبحروا بعيداً عن المكان لينضموا إلى الأعضاء الآخرين من جماعتهم في طرطوس. ثم جاء دور بيروت للاستسلام ثم حيفا بعد عدة أيام، وبعد ذهاب بقية الأرض الرئيسية لم يعد الفرسان الداوية كثيرون بما فيه الكفاية للدفاع عن القلاع المنعزلة الثلاث المتبقية في حوزتهم، وتخلوا عن طرطوس وعتليت كي يركزوا دفاعهم على جزيرة أرواد المحصنة التي عملوا على التشبث بها ضد جميع الهجمات في تحد رائع لم يكن مفيداً ضد المسلمين المنتصرين، حتى اضطروا إلى التخلي تحت وطأة اضطهاد منظمتهم في الوطن الأم فرنسا عن الساحل كان في الماضي مملكة صليبية صغيرة رمزية أخيرة، وفي تلك الأثناء كان الأشرف عازماً على منع المسيحيين من العودة أيضاً، وأعطى أوامره بوجوب تدمير المكان، فقوضت البساتين ومزارع الكروم ودمرت قنوات الري وتم محو قرى عن وجه الأرض، كم عريت مدن حتى أصبحت منازلها لا تلائم السكن إلا لقلة مهملة عن الفلاحين مع كلابهم المسعورة.

لكن من غير الممكن محو جميع آثار حضارة وما شعبها، وإذا كان السلطان قد نجح في ثني الإفرنج عن العودة إلى الأرض المقدسة التي ناضلوا من أجلها طويلاً وبجهد كبير، فإنه أخفق في طمس العلامات التي صنعوها فوقها خلال فترة احتلال استغرقت مائتي عام، فلا تزال تشمخ العديد من قلاعهم فوق القمم الصخرية كمعالم بارزة عن روعة فن العمارة العسكرية

عندهم، وشابهت الكنائس مثل كنيسة المذبح المقدس في القدس، والكاتدرائية في طرطوس في روعتها المباني القوطية في الغرب، ولكن الشيء الذي يلخص بشكل مناسب كلاً من مصير وعقيدة الصليبيين في الممالك الصليبية هو حجر منقوش على جدار أحد المباني في عكا، وهو اليوم جامع يدعى جامع الرمل الذي كان فيما مضى كنيسة مسيحية، وفي وقت ما دفع أحد الصليبيين الذي لم يدون اسمه بناء أحجاء إلى نقش عظة على أحد حجارته، وبالنسبة للمسلمين الذين يؤدون صلاتهم هناك في هذه الأيام لا تعني الكلمات اللاتينية المنقوشة شيئاً يذكر، أما بعض السواح، القادمين من الغرب فيدركون معناها، ومع ذلك فهم يقفون مدهوشين أمام هذا النصب الأخرس على طريقة وحياة موت الرجل الذي نقشها وعن حياة وموت آلاف عديدة أنها تقول: «إلى كل إنسان يجتاز هذا الشارع، أرجوك أن تصلي من أجل روحي».